البحث الاثري وقصة الطوفان

مفاخر اور الكلدانيين

البحث في مدينة ابرهيم الخليل يؤيد رواية الطوفان في سفر التكوين (١)

٢

ان اقدم التواريخ التي نستطيع تحقيقها في تاريخ اور يرجع الى سنة ٣١٠٠ ق.م . وهي السنة التي ارتقى فيها الملك « مس انّي بدا » اور ملك في الدولة الاورية الاولى ذرى العرش . وقد عيّن هذا التاريخ باتفاق العلماء المشتغلين بهذه المباحث وهو يختلف من أخطاء مائة سنة زيادة ونقصاً . ومما عثر عليه الباحثون آنية خزفية بديعة في مدافن قديمة يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٠٠ ق . م . نقش عليها اسماء افراد الاسرة المالكة حينئذٍ . ومن المرجّح الذي في مرتبة اليقين ان اور كان فيها ملوك سابقون لهذا التاريخ ولكن اسماءهم لم يكشف عنها حتى الآن . وعليه فتباشير الحضارة المنتظمة بلوكها وآثارها وانظمتها لم تظهر فيما كشف من آثار اور قبل القرن الخامس والثلاثين قبل المسيح

ففي ذلك العهد كان الشعريون صوّاغاً بارعين يخرجون من التحف المنحية آيات في الفن والابداع كالخناجر والحوذ والتماثيل والادوات المختلفة التي عثر عليها في مدافنهم . فمن ثلاث سنوات وجد خنجر للملك مس كلم دغ وقد وجدت معهُ نحو ١٥٠ قطعة ذهبية ظهر رواؤها لما ازيل الغبار عنها فاذا هي تضاهي ابدع ما انتجه الفن الايطالي في عصر النهضة

وقد تلت الملك « مس أني بدا » فترة طويلة تبلغ ٢٥٠٠ سنة لا نستطيع ان نجمل تاريخها في هذه المقالة الموجزة فنشير اشارة الى اهم الحوادث الظاهرة فيها

فمن الحقائق المأثورة عن الدولة الاورية الاولى التي دالت حوالي سنة ٢٩٠٠ ق . م ان علاقاتها التجارية حملت رجال الاعمال فيها على السفر الى بلدان آسيا المختلفة والاتصال بتجارها ومصادر الثروة فيها . ولنا في استعمال الصناع والصوّاغ للمعادن الثمينة والاحجار الكريمة التي ليس لها اثر في بلاد العراق — كالذهب والفضة والنحاس والقصدير والعقيق واللازورد والسيج وغيرها — اقوى دليل على ما كان لابناء اور من الصلات التجارية التي

(١) تنخيصاً عن « المجلة الجغرافية الاهلية » و « مجلة آسيا » الاميركيتين

تربطهم بابناء آسيا الصغرى ومصر وسوريا وفارس والقوقاس . بل وبلاد افغانستان والهند

وكان الجانب الاكبر من تاريخ العراق في اقدم الازمنة التي كشف البحث عنها حافلاً بالحروب بين المدن المستقلة. وفي احدى هذه الحروب خذلت اور ودالت دولة «مس اني بدّا» سنة ٢٩٠٠ والباحثون الاثريون يتتبعون تعاقب الدول على مدينة من المدن بحفر الآثار الخاصة بكل دولة منها في طبقات الانقاض المتراكمة . فابدع الآثار الاورية مثلاً وجدت تحت انقاض هيكل دمرتهُ جيوش بابل . وهكذا يتاح للاثري ان يقلب صفحات السجل الاثري كما يقلب صفحات كتاب فيخرج من الاطلال والانقاض المتراكمة آثار الدول المتعاقبة وتاريخها

وانقضت على اور ستة قرون بعد ما دالت دولتها الاولى (سنة ٢٩٠٠ ق . م .) ضرب فوقها الذل ستارهُ وخيمت في ربوعها وبين هياكلها اشباح الضعف والاستعباد . ولكنها خرجت من ليل الذل الى فجر الحرية في مطلع القرن الثالث والعشرين ق . م فاخذت تجدّد حياتها وتستعيد مكانتها وفي فترة قليلة بلغت اوج مجدها

ذلك ان حاكماً اسمهُ « اورنامّو » (صاحب الحجر المشهور) ظهر سنة ٢٣٠٠ ق.م. فأعاد لاور استقلالها — والاستقلال ركن كل حضارة وثقافة — وبعث في نفوس ابنائها سورة الاتقان والابداع فبرزوا في كثير من فنون العمران . ولم يكتفِ بأن يسمي نفسهُ « ملك شمّر وعقاد ، ملك اور وملك اربعة اطراف المعمور » بل ادعى كذلك انهُ شقّ طريقهُ بنفسهِ من الخليج الى الذروة اي سار بقوة جنوده من خليج فارس الى البحر الابيض المتوسط

ولكنهُ كان اكثر من فاتح مقدام وغازٍ موفّق . كان بنّاء منزلتهُ في اور كمنزلة اغسطس قيصر في روما . مع ان قيصر حوّل روما من مدينة مبنية بالطوب الى مدينة مبنية بالرخام . ولكن اورنامّو حوّل اور من مدينة مبنية بالطوب النيء الى مدينة مبنية بالطوب المشوي. والبحث في اطلال هذا العصر قد اسفر عن آثار عمارة رائعة في جمالها وعظمتها

وقد انحصرت اعمال البعثة في قسم المدينة المتوسط . ففي السنة الاولى كشفت عن آثار السور الذي يضم اعظم الهياكل وهو مربع مستطيل طولهُ نحو ثلاثة ارباع الميل وعرضهُ نحو ربع ميل . وكل الهياكل التي كشف عنها كانت مخصصة لعبادة الاله القمر « نار » او لعبادة زوجته « ننجال » ومعنى الاسم « السيدة العظيمة » . واذا اتيح للانسان ان يرى اشعة القمر الفضية تنير مدينة اور حتى يستطيع الانسان ان يقرأها كتابةً دقيقة الحروف لم يتعذر عليهِ فهم الباعث على عبادة القمر في تلك المدينة القديمة

رأس ثور آخر مصنوع من صناع الذهب وهذه الصورة هي تكبير لرأس الثور المتصل بالغيثارة المرسومة على صفحة سابقة
مقتطف مارس ١٩٣٠

مثال بديع من الفن الشمري وهو رأس ثور ملتحٍ وجد في قبر ملك مجهول باور . وهو مصنوع من رقوق الذهب صفح بها مثال خشبي
أمام صفحة ٢٦٣

ومن اهم المباني التي شيدت في اور في هذه الفترة برج زجورات تتوجه حدائق النخيل ومعبد للقمر . وقد يسفر الحفر في هذا البرج عن خزنة تحتوي على كنوز طريفة او خزانة امانات لملك قديم . والقيام بهذا الحفر من اعمال البعثة في المستقبل

ولما اسر العيلاميون الملك « ايبي سن » سنة ٢١٧٠ ق . م وهو آخر ملوك الدولة التي اسسها اور نامو تضي على اور قضاء مبرماً . كانت قد نشأت مدينة جديدة هي بابل تسيطر عليها طوائف العموريين وهم من اصل سامي من الغرب وارتفعت الى ذرى المجد على همة اهلها وقوتهم فلم يكن ثمة ما يقف في وجه تيارهم المندفق . فاصبحت اور حينئذ خاضعة لبابل . فطرد السمريون من مدينتهم العظيمة وتفرقوا في مستنقعات العراق وماشواعيشة عزلة لم يخرجوا منها بعدئذ . ولا تزال آثار السحنة السمرية تُرى بين عرب هذه المستنقعات

وفي سنة ١٩٢٨ عثر رجال البعثة على اعظم المكتشفات الآثرية مكانة في تاريخ اور مع انها اقلها استرعاء للانظار فلم تتطلب بها الصحف ولم تدو بها اسلاك البرق لان الآثار التي عثر عليها لم تكن آنية ذهبية وعاجية كالآنية التي عثر عليها في مدافن الملوك الذين مرّ ذكرهم — ولكن الآنية الخزفية المدهونة وقطع الصوان والسبج وغيرها من اقدم ما وُجد من مخلفات اور السابقة لعصر الملوك فيها . اي ان تاريخ هذه الآثار يرجع الى ما قبل ٣٥٠٠ سنة ق . م . واصحابها كانوا شعباً لا يزال في فجر العمران يختلف كل الاختلاف عن السمريين الذين نزلوا في هذه البلاد فيما بعد وشيّدوا فيها الحضارة التي اتينا على وصفها . وقد كانت هذه الآثار مدفونة تحت طبقة من الطمي متساوية الكثافة مما يدلّ على انها كانت طبقة رسبت في عهد واحد لا طبقات رسبت في ازمان متعاقبة

ومعنى العثور على طبقة واحدة من الطمي كان واضحاً للعيان . انها ولا ريب نتيجة طوفان عظيم طمر آثار العمران التي شيدت قبل حدوثه

وهذا الطوفان منتظر حدوثه في بلاد يخترقها نهران يفيضان كلّ سنة . ولذلك فالمرجّح ان هذه الطبقة الراسبة من الطمي نتيجة هذه الفيضانات القديمة الموضعية . بهذا يقول الباحث الذي يكتفي بالتشابه السطحي من غير ان ينفذ الى بواطن الامور

لا ريب في ان هذه الطبقة الراسبة نتجت عن فيضان قديم موضعي اذا نظرنا اليها فظراً خاصًّا ولكن الادلة المجتمعة لدينا تثبت ان ذلك الفيضان الذي رسّب هذه الطبقة الطاهرة لما تحتها من آثار اور المتغلغلة في القدم هو الطوفان المذكور في سفر التكوين — الطوفان الذي اصبح فيما بعد طوفاناً عالميًّا في عُرف قراء التوراة

ولا نستطيع المبالغة في وصف خطورة هذا الاكتشاف وعليه يجب ان تثبت اهم الادلة

لاقناع الذي يميلون الى تكذيب هذا القول او عدم الاخذ به على الاقل

فالمسألة التي امامنا هي هذه : هل الطوفان (او الفيضان) الذي رسّب طبقة الطمي التي عثرنا تحتها على اقدم آثار اور القديمة هو الطوفان العالمي المذكور في التوراة او لا ؟

وقبل المضي في هذا البحث يجب ان نذكر ان مباحث الاثريين في هذا الموضوع لا تزال تشير الى ان استئناف البحث لا بدّ أن يُسفر عن ادلة اخرى من هذا القبيل

اما الادلة فهي : (اولاً) ان الآثار التي عثرنا عليها تحت هذه الطبقة الراسبة هي اقدم الآثار التي وجدت في اور . وهذا يسهل اثباتهُ من مقدار الاتربة التي حفرت ومن قِدَم الآثار المؤرخة التي وجدت فوقها

(ثانياً) ان نوع الحضارة التي طمر هذا الفيضان آثارها لم تظهر فيها بعد واهم ميزاتها — وهي آنية خزفية ملونة بالون زاهية — لم تستعمل قط في العصور التي تلت

(ثالثاً) الآثار التي وجدت فوق هذه الطبقة الراسبة هي آثار شعب جديد — هو شعب السومريين — الذين كانوا قد تعلموا الكتابة . وفي خرافاتهم القديمة ذكر للطوفان. والطوفان الذي وصفوه في كتاباتهم انتقل على مرّ العصور حتى نزلت قصتهُ في سفر التكوين وهي تتفق والخرافات القديمة المتعلقة بالطوفان بجذافيرها

وذكرى الطوفان الكبير دفعت هذا الشعب السومري الى العناية بفن العمارة وبناء المباني العالية وتشييد برج « زجورات » الذي يماثل برج بابل المأثور عن العهد السابق للطوفان . فاكتشاف هذه الطبقة من الطمي الراسب يوحد في آنٍ واحد بين الخرافات القديمة وأدلة التاريخ والجيولوجيا. والى القارىء وصف الطوفان كما وجد مكتوباً على الواح خزفية بابلية بالقلم المسماري . وفيها يُرى وجوه الشبه بين هذا الوصف والوصف المدوّن في سفر التكوين . واسم الكاتب نابشتيم وهو يقابل نوح في رواية سفر التكوين . قال :—

« ستة ايام وست ليال هبت الرياح (وثارت) العاصفة (وعلت) الطوفان على الارض . فلما اشرق اليوم السابع خمدت العاصفة التي كانت قد حاربت كجبور من الرجال . وهدأ البحر وسكن الاعصار ووقف الطوفان . ورأيت الارض فصمت لان كل البشر كانوا قد عادوا الى الطفال . والحقول المسورة كانت قد اصبحت مستنقعات . وفتحت فاتحة وجعت النور يقع على وجهي . . . . ولما اشرق اليوم السابع اخذت حمامة واطلقتها فذهبت الحمامة ولما لم تجد مكاناً تستقر عليه رجعت . واخذت غراباً واطلقته فذهب الغراب وشاهد انخفاض مستوى المياه . فأكل وولغ ونعق ولم يرجع . . . . وقدمت ذبيحة . . . فتمت الآلهة رائحة الذبيحة الذكية فاجتمعت الآلهة كالذباب حولها . . . »

فوجوه الشبه بين هذه الكتابة السفينية وقصة التوراة تبعث على الدهشة والكلام كله مشبع بالالفاظ التي تمّ على بلاد العراق فذكر الدلتان والمستنقعات يدلُّ على بلادٍ راسبية . ثم راجع انحسار المياه وعموم الحرّ وتجمع الذباب — ما اوضح هذا الوصف واصدقهُ !

تماثيل ذهبية صغيرة دقيقة الصنع لحيوانات مختلفة وجدت في لباس الرأس الخاص بالملكة صب عاد

مقتطف مارس ١٩٣٠ — امام صفحة ٢٦٤